النداءات القرآنية في سورة الأنفال (البدرية)

محمد الطيب مساعد*

المقدمة:

سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

الأنفال: جمع نفل محرّكاً، وهو الغنيمة^١، ومنه قول عنتره:

إنا إذا احمرّ الوغى نروي القنا *** ونعف عند تقاسم الأنفال^٢

نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب "غزوة بدر" التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة (سورة بدر) لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإذهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود. وفي ثنايا ثرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان.

* أستاذ بقسم القرآن الكريم - كلية أصول الدين

١ - فتح القدير للشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان، ج ٣، ص ١٤٤.

٢ ديوان عنتره بن شداد، باب عفت الدير، وياق الأطلال، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي .

بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا
إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾
الأنفال. كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهداتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم
بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر
الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

النداء الأول

التحذير من الفرار في المعركة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ
يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ
وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾ الأنفال فقد جاء في هذا النداء التحذير من
الفرار في المعركة، وذكر الله المسلمين بما أيدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من
عنده، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشد منهم وأكثر عدداً وعدداً،
وأعقبه بأن أعلمهم أن ذلك شأنه مع الكافرين به اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم
من الوهن والفرار، فالجملة معترضة بين جملة: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي
مَعَكُمْ} الأنفال ١٢ وبين جملة {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ} الأنفال ١٧ الآية وفي هذا تدريب
للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء، وهي خطة محمودة عند العرب
لم يزلها الإسلام إلا تقوية.

قال الحصين بن الحُمام:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُتَقَدَّمَ^٣

٣ خزائن الأدب، عبد القادر البغدادي، المطبعة السلفية بالقاهرة. مصر ١٣٤٧ هـ ج ١، ص ١٣٨.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في قتال بدر، ولعل مراد هذا القائل أن حكمها نزل يوم بدر ثم أثبتت في سورة الأنفال النازلة بعد الملحمة، أو أراد أنها نزلت قبل الآيات التي صدرت بها سورة الأنفال ثم رتب في التلاوة في مكانها هذا، والصحيح أنها نزلت بعد وقعة بدر. والله أعلم.

واللقاء غلب استعماله في كلامهم على مناجزة العدو في الحرب. فالجملة استئناف ابتدائي، والمناسبة واضحة، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^{٤٥} الأنفال وأصل اللقاء: أنه الحضور لدى الغير.

والزحف أصله: مصدر زَحَفَ من باب منع، إذا انبعث من مكانه منتقلًا على مقعدته يجر رجليه كما يزحف الصبي. {زَحَفًا} حال من الذين كفروا. والزحف: الجيش الدهما لذي يرى لكثرتة كأنه يزحف، أي يدب دبيباً، من زحف الصبي إذا دبَّ على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا، فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين. أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً، وتقدمه نهى لهم عن الفرار يومئذ. وفي قوله: {وَمَنْ يُؤْلَهِمْ يَوْمَئِذٍ} أماره عليه {إِلَّا مُحَرَفًا لِّقِتَالٍ} هو الكرّ بعد الفرّ، يخيل عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها {أَوْ مُتَحَيِّزًا} أو منحازاً {إِلَى فِتْنَةٍ} إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها، ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدوه في ساحة القتال زَحَفٌ؛ لأنه يدنو إلى العدو باحتراس وترصد فرصة، فكانه يزحف إليه.^٤

^٤ تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان، ج ٦، ص ٩٧.

ويطلق الزحف على الجيش الدهم، أي الكثير عدد الرجال، لأنه لكثرة الناس فيه يثقل تنقله فوصف بالمصدر، ثم غلب إطلاقه حتى صار معنى من معاني الزحف ويجمع على زحف.

وقد اختلفت طرق المفسرين في تفسير المراد من لفظ زحفاً في هذه الآية فمنهم من فسره بالمعنى المصدري أي المشي في الحرب وجعله وصفاً لتلاحم الجيشين عند القتال، لأن المقاتلين يدبون إلى أقرانهم دبيباً، ومنهم من فسره بمعنى الجيش الدهم الكثير العدد، وجعله وصفاً لذات الجيش.

وعلى كلا التقديرين فهو: إما حال من ضمير {لقيتم} وإما من {الذين كفروا}، فعلى التفسير الأول هو نهي عن الانصراف من القتال فراراً إذا التحم الجيشان، سواء جعلت زحفاً حالاً من ضمير {لقيتم} أو من {الذين كفروا}، لأن مشي أحد الجيشين يستلزم مشي الآخر.

وعلى التفسير الثاني: فإن جعل حالاً من ضمير لقيتم كان نهياً عن الفرار إذا كان المسلمون جيشاً كثيراً، ومفهومه أنهم إذا كانوا قلة فلا نهي، وهذا المفهوم مجمل يبينه قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا آلَ الْفَاكِهَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ (٦٥) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْكُمْ عَهْدَ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) الأنفال، وإن جعل حالاً من {الذين كفروا} كان المعنى إذا لقيتموهم وهم كثيرون فلا تفروا، فيفيد النهي عن الفرار إذا كان الكفار قلة بفحوى الخطاب، ويؤول إلى معنى لا تولوهم الأدبار في كل حال.

وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله و ما هن؟ قال: الشرك بالله و السحر و قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق و أكل الربا و أكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)°. الموبقات، هي المهلكات قيل وما هن يا رسول الله قال الشرك بالله والشرك بالله هو من أكبر الكبائر، هو أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة إشراك بالله وقتل النفس المؤمنة بغير حق والفرار يوم الزحف في سبيل الله وعقوق الوالدين ورمي المحصنة وتعلم السحر واكل الربا واكل مال اليتيم وأن العمرة الحج الأصغر ولا يمس القرآن إلا طاهر ولا طلاق قبل امتلاك ولا عتاق حتى يبتاع ولا يصلين أحكم في ثوب واحد ليس على منكبه شيء^٦.

إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمن بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وأن العمرة الحج الأصغر، ولا يمس القرآن إلا طاهر، ولا طلاق قبل إملاك، ولا عتق حتى يبتاع، ولا يصلين أحد منكم في ثوب واحد وشقه باد، ولا يصلين أحد منكم عاقص شعره، ولا يصلين أحد منكم في ثوب واحد ليس على منكبه شيء^٧»

وعن ابن عمر رضي الله عنه: (خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت: يا رسول الله نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم

٥ صحيح البخاري "محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله، باب رمي المحصنات مؤسسة مناهل العرفان . مكتبة الغزالي، ج ٢٢، ص ٤١٥.

^٦ السنن الكبرى للبيهقي، دار المعرفة . بيروت، ١٤١٣ هـ، ج ٤، ص ٨٩.

^٧ المستدرک للحاکم النيسابوري علي الصحيحين ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية . بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، ج ٣، ص ٤٨٧.

الكارون وأنا فنتكم)^٨. وانهزم رجل من القادسية، فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلك، فررت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فنتك.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. فإن قلت: بم انتصب {الْأَمْتَحَرَفًا}؟ قلت: على الحال، وإلا لغو. أو على الاستثناء من المولين، أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً. وقرأ الحسن «دبره بالسكون ووزن متحيز متفعل لا متفعل، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز»^٩. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ (الأنفال)، مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرضهم على الصبر عند مكافحة العدو ونهاهم عن الانهزام وانتصب {زحفاً} على الحال، فقل من المفعول أي لقيتموهم وهم جمع كثير وأنتم قليل فلا تفرّوا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، وقيل من الفاعل أي وأنتم زحف من الزحف وكان ذلك إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفاً بعد أن نهاهم عن الفرار يومئذ، وقيل حال من الفاعل والمفعول أي متزاحفين. ولم يذكر ابن عطية إلا ما يدل على أنه حال منهما قال {زحفاً} يراد به متقابل الصوف والأشخاص أي يزحف بعضهم إلى بعض.

وقيل انتصب {زحفاً} على المصدر بحال محذوفة أي زاحفين زحفاً وهذا الذي قيل محكم فحرم الفرار عند اللقاء بكل حال.

٨ تفسير البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، دار إحياء التراث العربي..بيروت، ج٦/ص٥٠.

٩ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري، دار الفكر . بيروت . لبنان، ج٢، ص ٢٨٤.

وقيل كان هذا في بداية الإسلام حيث كان الأمر بالمصابرة أن يوافق كل مسلم عشرة كفار ثم خفف فجعل واحد في مقابلة اثنين ويأتي حكم المؤمنة الفارة من ضعفها في آية التخفيف وعدل عن الظهور إلى لفظ {الأدبار} تقبيحاً لفعل الفار وتبشعاً لانتهزامه وتضمن هذا النهي الأمر بالثبات والمصابرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦) الأنفال لما نهى تعالى عن تولي الأدبار توعد من ولّى دبره وقت لقاء العدو وناسب قوله {ومن يولهم} {فقد باء بغضب} كان المعنى فقد ولّى مصحوباً بغضب الله ، وعدل أيضاً عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التقبيح والذم إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة المذمومة جداً ألا ترى قول الشاعر:

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْنَا^{١٠} وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا نُقَطِرُ الدَّمََا^{١١}

وقال القطامي:

لَيْسَتْ تُجْرَحُ فَرَاراً ظُهُورُهُمْ وَبِالنُّحُورِ كُلُّوْمُ ذَاتِ أَبْلَادٍ^{١٢}
وَالْبَلَدُ: أُدْحِي النِّعَامِ. يقال: هو أَذَلُّ من بيضة البلد، أي من بيضة النعام التي تتركها. والبلدة: الأرض. يقال: هذه بَلَدُنَا، كما يقال بَجَرْتَنَا.^{١٣}

^{١٠} الكلم: هي الجراح وجمعها كلوم. الصحاح للجوهري، ج ١، ص ٤٩.

^{١١} الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي . القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م، ج ١/ ص ١٣٧،

^{١٢} شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، ج ١، ص ٥٨.

^{١٣} الصحاح في اللغة، للجوهري، تحقيق: أ حمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين . بيروت، ط ٢، ج ١، ص ٥٢.

وقال في التحرير^{١٤}: وهذا النوع من علم البيان يُسمى بالتعريض عرض بسوء حالهم وقبح فعالهم وخساسة منزلتهم وبعضهم يسميه الإيماء وبعضهم يسميه الكناية وهذا ليس بشيء فإن الكناية أن تصرّح باللفظ الجميل على المعنى القبيح انتهى.

والظاهر أنّ الجملة المحذوفة بعد {إذ} وعوض منها التتوين هي قوله تعالى: {إذ لقيتم الكفار} فقيل المراد يوم بدر وما وليه في ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فرّ، ونسخ بعد ذلك حكم الآية بآية الضعف وبقي الفرار من الزحف ليس كبيرة وقد فرّ الناس يوم أحد فعفا الله عنهم وقال الله فيهم ويوم حنين {ثم وليتم مدبرين} ولم يقع على ذلك تعنيف انتهى، وهذا القول بأن الإشارة بقوله يومئذ لا يظهر إلى يوم بدر لا يظهر لأنّ ذلك في سياق الشرط وهو مستقبل فإن كانت الآية نزلت يوم بدر قبل انقضاء القتال فيوم بدر فرّ من أفراد لقاء الكفار فيندرج فيه ولا يكون خاصاً به، وإن كانت نزلت بعده فلا يدخل يوم بدر فيه بل يكون ذلك استئناف حكم في الاستقبال.

قال الجمهور: على أنه إشارة إلى يوم اللقاء الذي تضمنه قوله {إذا لقيتم} وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بسبب الضعف الذي بيّنه الله في آية أخرى وليس في الآية نسخ وأما يوم أحد فإنما فرّ الناس من مراكزهم من ضعفهم ومع ذلك عفاوا لكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وفرارهم عنه، وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنما انكشف أمام الكرة ويحتمل أن عفو الله عن من فرّ يوم أحد كان عفواً عن كثرة.^{١٥}

١٤ تفسير التحرير والتتوين، لابن عاشور ج٦، ص ٩٧

١٥ تفسير البحر المحيط، لابن حيان، ج٦، ص ٤٩.

وعن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات). قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات).^{١٦} (اجتنبوا) ابتعدوا. (الموبقات) المهلكات. (السحر).

السحر^{١٧} في اللغة: عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخيلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها. (بالحق) كالقتل قصاصاً. (التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقات الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته. (قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا. (المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا. (الغافلات) البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور.^{١٨}

وأيضاً: عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٥) الأنفال: يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر،

^{١٦} صحيح مسلم بشرح النووي، في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها، مؤسسة مناهل العرفان - بيروت ج

٢، ص ١٧٢. وأورده البخاري في صحيحه، ج ٢، ص ١١٧.

١٧ المحيط في اللغة، صاحب بن عباد، ج ١، ص ١٩٧.

١٨ الاستذكار، ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، الناشر: دار الكتب

العلمية - بيروت

الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، م ٢ ص ١٧٩.

وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾ النساء:

{فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ} أي فإذا أديتم صلاة الخوف على الوجه المبين وفرغتم منها. {قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۝١٠٣﴾} النساء أي فداوموا على ذكره سبحانه في جميع الأحوال حتى في حال (المسابقة) والمقارعة والمراعاة.^{١٩}

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال عقب تفسيرها: لم يعذر الله تعالى أحداً في ترك ذكره إلا المغلوب على عقله

وقيل: المعنى وإذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف أو التحم القتال فصلوا كيفما كان، وهو الموافق لمذهب الشافعي من وجوب الصلاة حال المحاربة وعدم جواز تأخيرها عن الوقت، ويعذر المصلي حينئذ في ترك القبلة لحاجة القتال لا لنحو جماع دابة وطال الفصل، وكذا الأعمال الكثيرة لحاجة في الأصح لا الصياح أو النطق بدونه ولو دعت الحاجة إليه كتنبيه من خشي وقوع مهلك به أو زجر الخيل أو الإعلام بأنه فلان المشهور بالشجاعة لندرة الحاجة ولا قضاء بعد الأمن فيه، نعم لو صلوا كذلك لسواد ظنوه ولو بإخبار عدل عدواً فيان أن لا عدو وأن بينهم وبينه

١٩ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألويسي، دار الكتب العلمية . بيروت، ج ٤، ص ٢١٣.

ما يمنع وصوله إليهم كخندق، أو أن بقربهم عرفاً حصناً يمكنهم التحصن به من غير أن يحاصرهم فيه قضوا في الأظهر^{٢٠}، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤) النساء

تعليلاً للنهي وتشجيع لهم أي ليس ما ينالكم من الآلام مختصاً بكم بل الأمر مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم أنتم لا تصبرون مع أنكم أولى بالصبر منهم حيث أنكم ترجون وتطمعون من الله تعالى ما لا يخطر لهم ببال من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم في الآخرة. وجوز أن يحمل الرجال على الخوف فالمعنى إن الألم لا ينبغي أن يمنعكم لأن لكم خوفاً من الله تعالى ينبغي أن يحترز عنه فوق الاحتراز عن الألم وليس لهم خوف يلجئهم إلى الألم وهم يختارونه لإعلاء دينهم الباطل فما لكم والوهن ولا يخلو عن بعد، وأبعد منه ما قيل: إن المعنى أن الألم قدر مشترك وأنكم تعبدون الإله العالم القادر السميع البصير الذي يصح أن يرجى منه، وأنهم يعبدون الأصنام التي لا خيرهن يرجى ولا شرهن يخشى. وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج {إِنْ تَكُونُوا} بفتح الهمزة أي لا تهنوا لأن تكونوا تألمون؛ وقوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ} تعليلاً للنهي عن الوهن لأجله، وقرئ تألمون كما يألمون بكسر حرف المضارعة، والآية قيل: نزلت في الذهاب إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان يوم أحد، وقيل: نزلت يوم أحد في الذهاب خلف أبي سفيان وعسكره إلى حمراء الأسد، وروي ذلك عن عكرمة {وَكَانَ} الله عَلِيمًا} مبالغاً في العلم فيعلم مصالحكم وأعمالكم ما تظهرون منها وما تسرون {حَكِيمًا} فيما يأمر وينهى فجدوا في الامتثال لذلك فإن فيه عواقب حميدة وفوزاً عظيماً.^{٢١}

٢٠ المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢١٥

٢١ في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج ٤، ص ١٢٩. دار الشروق، القاهرة. الطبعة ٢٥. ١٤١٧ هـ.

{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ} أيها المؤمنون {قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) الأنفال يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار {قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد: {قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦) الأنفال

فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف.

{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} بعونه وتأنيده. وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.^{٢٢} ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف. ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار. ولكن يرد على هذا أمران:

٢٢ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١، ص ٣٢٥.

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتتان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر. ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم إذا غلب على ظنهم الضرر كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: {الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر لازم وأمر محتتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد. فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر، وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.^{٢٣}

فشق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم إنه جاء تخفيف فقال {قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٦) الأنفال

قرأ أبو توبة إلى قوله {يغلبوا مائتين} قال فلما خفف الله تعالى عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. ٢٤

النداء الثاني: الأمر بالسمع والطاعة:

^{٢٣} تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ج ١، ص ٣٢٥.

^{٢٤} - سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث السجستاني، جمع جوامع الأسانيد ومكنز الصحاح والسنن والمسانيد - باب في التولي يوم الزحف، جمعية المكنز الإسلامي، ١٤٢١ هـ، ج ٢، ص ٥٢.

فقد جاء في هذا النداء الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) الأنفال

كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٤) الفرقان بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون: أي لا تعتقد ذلك ولا تظنه، فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه: أي لا يدركونه بعقولهم إن هم إلا كالأنعام أي ما هم إلا كالأنعام، التي هي الإبل والبقر والغنم في عدم سماع الحق، وإدراكه، بل هم أضل من الأنعام: أي أبعد عن فهم الحق، وإدراكه.^{٢٥}

عن أبي نجیح العریاض بن سارية - رضي الله عنه -، قَالَ: وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَوْعِظَةً بَلِغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةٌ مُودَعٌ فَأَوْصِنَا، قَالَ: ((أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ))^{٢٦}

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في {عنه} عائد إلى الرسول، لأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من طاعة الله، و {قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨٠) النساء: ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى

٢٥ أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، ج٦، ص٩٧.

٢٦ رياض الصالحين للنووي، حققه ماهر ياسين الفحل، باب في المحافظة على السمع والطاعة، ج١،

رسوله، كما في قوله: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} التوبة: ٦٢ وقيل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دلّ عليه {أطيعوا}، وأصل تولوا: تتولوا، فطرححت إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، وبه قال الجمهور. وقيل: إنه خطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق.

والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبي من الآية. وجملة {وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} في محل نصب على الحال، والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم {قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١١) الأنفال. وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بأذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ} أي: ما دبّ على الأرض {عِنْدَ اللَّهِ} أي: في حكمه {الصم البكم} أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق {الذين لَا يَعْقِلُونَ} ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شرّ الدوابّ عند الله، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرّها.

{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ} أي: في هؤلاء الصم البكم {خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} سماعاً ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين. قال الزجاج {لَأَسْمَعَهُمْ} جواب كل ما سألوا عنه. وقيل: {لَأَسْمَعَهُمْ} كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره؛ ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

{قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) الأنفال

لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

وعن مجاهد، في قوله: {وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} قال: عاصون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب، في قوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ} الآية قال: إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له.^{٢٧}

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾^(١٢) التغابن:

ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق الإيمان كما في حديث معاذ «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فأول ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة»^{٢٨}.

وتفريع {فإن توليتم} تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. والتولي مستعار للعصيان وعدم قبول دعوة الرسول.

وحقيقة التولي الانصراف عن المكان المستقر فيه واستعير التولي للعصيان تشبيهاً له بمبالغة في التحذير منه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾^(١٣) الأنفال: ٢٠

والتعريف في قوله: {رسولنا} بالإضافة لقصد تعظيم شأنه بأنه صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين. وهذا الضمير التفات من الغيبة إلى التكلم يفيد تشريف الرسول بعز الإضافة إلى المتكلم.

^{٢٧} تفسير فتح القدير للشوكاني، ج٣، ص ١٦٧.

^{٢٨} المنتقى شرح الموطأ، للإمام مالك بن أنس، ج٢، ص ٨٠.

ومعنى الحَصْرُ قوله: {فإنما على رسولنا البلاغ المبين} قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كون واجبه البلاغ، قصر موصوف على صفة فالرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على لزوم البلاغ له لا يعدو ذلك إلى لزوم شيء آخر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ المائدة: ٩٢

طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله، فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: {وَأَحْذَرُوا} أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} عما أمرتم به ونهيتم عنه.

{فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ} وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلا أنفسكم، وإن أسأتم فعليها والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به. ٢٩

النداء الثالث: بيان ما يدعوهم إليه الرسول:

فقد بين لهم أن ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الأنفال: ٢٤

والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال بأوامر الدعوة إلى الله {لِمَا يُحْيِيكُمْ} من علوم الديانات والشرائع لأن العلم حياة كما أن الجهل موت.

قال الشاعر:

لا تعجبن الجهول حلتها فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم، أو للشهادة لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) آل عمران
 ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) الأنفال.

أي يميته فتقوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب، فاعتموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله، أو بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) الأنفال واعلموا أنكم إليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة^{٣٠}.
 الإجابة والاستجابة بمعنى. يقال استجاب الله دعاءه.

قال الشاعر كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى *** فلم يستجبهُ عند ذاك مجيب^{٣١}
 الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة، ووحد الضمير هنا حيث قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ كما وحده في قوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجبوا. وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (٣١) الأحقاف، وقد يتعدى استجاب بنفسه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿استجيبوا﴾ أي: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون

٣٠ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي، طبعة

القاهرة ١٣٤٤هـ، ج ١، ص ٤١٦.

٣١ الصحاح في اللغة للجوهري، باب جود، ج ١، ص ١٠٧.

متعلقة « بدعا » أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت.

قال الجمهور من المفسرين:

المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية. وقيل المراد بقوله: {لَمَّا يُحْيِيكُمُ} الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدو إذا لم يغز غزا.

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال. وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال) قيل معناه: بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم. وقيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف أمناً، ويبذل عدوهم من الأمن خوفاً. وقيل هو: من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد

كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) ق: ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية.

واختار ابن جرير:

أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل. ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني. {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} معطوف

على {أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشرّ شرّاً.
قال الفراء^{٣٢}:

ولو استأنفت فكسرت همزة « إِنَّه » لكان صواباً. ومثل هذا جائز في العربية.^{٣٣}
وعن العرياض^{٣٤} بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب قال قائل: كأن هذه موعظة مودع، فما تأمرنا؟ قال: «عليكم بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم، وإن كان عبداً حبشياً، ألا وسيري من بقي منكم بعدي اختلافاً كثيراً، فمن أدرك ذاك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة»^{٣٥}

النداء الرابع: إفشاء السروما فيه من خيانة الله ولرسوله وللأمة:

فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء السر للأعداء فيه خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضاً: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) الأنفال:

^{٣٢} محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء أبو يعلى، كان عالم زمانه وفريد عصره ونسيج وحده وقرّيع دهره وكان له في الأصول والفروع القدم العالي وفي شرف الدين والدنيا المحل السامي والخطر الرفيع عند الإمامين: القادر والقائم رضي الله عنهما وأصحاب الإمام أحمد رضي الله عنه له يتبعون ولتصانيفه،

طبقات الحنابلة، ج ٣، ص ٢٤٨.

^{٣٣} فتح القدير، للشوكاني ج ٣، ص ١٦٩.

^{٣٤} العرياض بن سارية السلمي، يكنى أبا نجيح. كان من أهل الصفة سكن الشام ومات بها سنة خمس وسبعين. وقيل: بل مات في فتنة ابن الزبير، روى عنه من الصحابة أبو رهم وأبو أمامه، وروى عنه جماعة من تابعي أهل الشام. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ١، ص ٣٨٤.

^{٣٥} شعب الإيمان للبيهقي، ج ٦/٣، ص ٢٥٥.

{لا تخونوا الله والرسول} اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، وذلك "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر قريظة سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان منا صحا لهم، لأن ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى، أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا، فأطاعوه، فكانت تلك خيانتته؛

قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفتُ أنني قد خنت الله ورسوله، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، والأكثرين. وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أدوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني، فجاء فحلّه بيده، فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجزئك الثلث». والثاني: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا^{٣٦}، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «اخرجوا إليه واكتبوا» فكتب إليه رجل من المنافقين: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فنزلت هذه الآية، قاله جابر بن عبد الله.

والثالث: أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان، قاله المغيرة بن شعبه.

٣٦ جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري،

[٢٢٤ - ٣١٠ هـ] المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤٠٥ هـ، ص.

والرابع: أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت هذه الآية، قاله السدي. وفي خيانة الله قولان. أحدهما: ترك فرائضه. والثاني: معصية رسوله. وفي خيانة الرسول قولان. أحدهما: مخالفته في السرّ بعد طاعته في الظاهر. والثاني: ترك سنته. وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال. أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس. وفي خيانتها قولان. أحدهما: تنقيصها. والثاني: تركها.

والثاني: أنها الدين، قاله ابن زيد. فيكون المعنى: لا تُظهروا الإيمان وتُبتطنوا الكفر.

٣٧

وأصل الخون: الخَوْنُ أن يُؤْتَمَنَ الإنسانُ فلا يَنْصَحَ ^{٣٨} النقص كما أن أصل الوفاء: الإتمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه فإن الخائن ينقص المخون شيئاً مما خانه فيه، اعتبر الراغب في الخيانة أن تكون سرّاً، والمراد بها هنا عدم العمل بما أمر الله تعالى به ورسوله عليه الصلاة والسلام. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن خيانة الله سبحانه بترك فرائضه والرسول صلى الله عليه وسلم بترك سنته وارتكاب معصيته.

{وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} والمراد النهي عن خيانة الله تعالى والرسول وخيانة بعضهم بعضاً. ^{٣٩}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » ٤٠

٣٧ تفسير زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي. بيروت، ط ٣، ١٩٨٧ م، ج ٣، ص ١٠.

٣٨ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ج ٣، ص ٣٢٢.

٣٩ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ج ٦، ص ١٤١.

٤٠ صحيح البخاري ج ١، ص ٣٣.

النداء الخامس: بيان ثمرة التقوى:

فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) الأنفال:

الفرقان: وفرقان من التفريق بين الشئيين، وبه سمي الفرقان، والله أعلم، لأنه فرق بين الإيمان والكفر.^{٤١}

جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً. والتقوى: اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه. والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل، والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس. وقيل: الفرقان: المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر:

وكيف أرجو الخلد والموت طالبي وما لي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء:

المراد بالفرقان الفتح والنصر. قال ابن إسحاق: الفرقان الفصل بين الحق والباطل، وبمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج

والنجاة. قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢٢) الطلاق

^{٤١} جمهرة اللغة ، لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين . بيروت، ط ١، ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٢٠٠.

وبه قال مجاهد ومالك بن أنس.

{وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} أي: يسترها حتى تكون غير ظاهرة {وَيَغْفِرُ لَكُمْ} ما اقترفت من الذنوب. وقد قيل إن المراد بالسيئات: الصغائر، وبالذنوب التي تغفر: الكبائر. وقيل المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدّم من الذنوب وما تأخر

{والله ذو الفضل العظيم} فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: {يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا} قال: هو المخرج. وأخرج ابن جرير عنه، قال: هو: النجاة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، مثله.^{٤٢}

وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له، و {ويجعل لكم فرقاناً} معناه فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم أي بالنصرة والتأييد عليهم، و «الفرقان» مصدر من فرق بين الشيئين إذا حال بينهما أو خالف حكمهما، ومنه قوله {يوم الفرقان} الأنفال: ٤١ وعبر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان ها هنا بالنجاة، وقال السدي ومجاهد معناه مخرجاً، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون فمن ذلك قول مزرد بن ضرار: الخفيف

بادر الأفق أن يغيب فلماً

أظلم الليل لم يجد فرقاناً

وقال الآخر: الطويل

وكيف أرجي الخلد والموت طالبي ومالي من كأس المنية فرقان^{٤٣}

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ﴾ (٤) الطلاق:

قال الضحاك: أي من يتقه في طلاق السنة يجعل له من أمره يسرا في الرجعة. وقال مقاتل: ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة.^{٤٤}

^{٤٢} تفسير فتح القدير، للشوكاني، ج ٣، ص ١٧٤.

^{٤٣} المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق المحاربي، ج ٣، ص ١٧٠.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ﴾ (٢) الطلاق:

وقوله جلّ ذكره: {قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ﴾ (٣) الطلاق -

إذا صدّق العبدُ في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجين لا يعلّقُ بها شيءٌ. ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي سرادقاتِ عنايته، ويدخله في كنف الإيواء، ويصرفُ الأشغال عن قلبه، ويخرجه من ظلمات تدبيره، ويجرده من كل أمر، وينقله إلى فضاء تقديره.^{٤٥}

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۖ﴾ (٥) الطلاق:

أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.^{٤٦}

النداء السادس: وهو النداء الأخير:

فقد وضح لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله تعالى التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً:^{٤٧}

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) الأنفال: "إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله" الأنفال ٤٥

^{٤٤} الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، توزيع مكتبة الغزالي . مؤسسة مناهل العرفان، ج ١٨، ص ١٦٥.

^{٤٥} تفسير أبو القاسم القشيري، ج ٧، ص ٤٣٧.

^{٤٦} تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ج ١، ص ١٧٧.

^{٤٧} صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، ج ١، ص ٤٩٢.

لأن الثبات هو الصبر والذكر هو الدعاء وقول ثالث قال مجاهد: الصبر في هذه الآية الصوم ومنه قيل لرمضان شهر الصبر فجاء الصوم والصلاة على هذا القول في الآية متناسبا في أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهد في الدنيا والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخضع فيها القلوب ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر الآخرة والله أعلم.

الرابعة - الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين قال يحيى بن اليمان الصبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله والرضا بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك. وقال الشعبي قال علي رضي الله عنه الصبر من الأيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قال الطبري:

وصدق علي رضي الله عنه وذلك أن الأيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق. فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به.

الخامسة - وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدا فقال "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها" الأنعام ١٦٠ وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال "قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾" البقرة: ٢٤٨.

^{٤٨} الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١، ص ٣٧٢.

بيان الولاية الكاملة بين المؤمنين:

الولاية: من الولي، وهو القرب، فهي قرابة حكيمة حاصلة من العتق، أو من الموالاة. وهي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وفي الشرع: تنفيذ القول على الغير، شاء الغير أو أبى.^{٤٩}

وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين، وأنه مهما تناعت ديارهم، واختلفت أجناسهم، فهم أمة واحدة، وعليهم نصر الذين يستتصرونهم في الدين، كما الكفر ملة واحدة وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣) الأنفال:

{والذين كفروا بعضهم أولياء بعضهم} ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين {أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} الأنفال: ٧٢

ومعناه: نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباحة مباحة ومصا رمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً ثم قال: {إِلَّا تَفْعَلُوهُ} أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار. ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً وقرئ «كثير بالناء»^{٥٠}.

٤٩ التعريفات، للجرجاني، ج ١، ص ٨٥.

٥٠ تفسير الكشاف، للزمخشري، ج ٢، ص ٣٩٠.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْنَعَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

الممتحنة: ١

نزلت في حاطب ابن أبي بلتعة وذلك أنه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح كتب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذرکم وأرسله مع سارة مولاة بني المطلب فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال انطلقوا حتى تأثروا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوها منها وخلوها فإن أبت فاضربوها عنقه فأدركوها ثمّة فحدثت فسلّ عليّ سيفه فأخرجته من عقاصيها فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال ما حملك على هذا فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكني كنت امرأة ملصقة في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أن كتابي لن يُغني عنهم شيئاً فصدقته رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وقبل عذره {تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} أي توصول إليهم المودة على أن الباء زائدة كما في قوله تعالى {قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} أو تلقون إليهم أخبار النبي عليه الصلاة والسلام بسبب المودة التي بينكم وبينهم^{٥١}.

{وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} حال من فاعل تلقون وقيل من فاعل لا تتخذوا وقرئ لما جاءكم أي كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب الإيمان سبباً

٥١ تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان، ج ١٠، ص ٢٥٣.

للكفر {يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} أي من مكة وهو إما حال من فاعل كفروا أو استئناف مبين لكفرهم وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى: {أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} تعليل للإخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والتفات من التكلم إلى الغيبة للإشعار بما يوجب الإيمان من الإلوهية والرؤية {إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} متعلق بلا تتخذوا كأنه قيل لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي وقوله تعالى: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمُودَةِ} استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ أي تسرون إليهم المودة أو الأخبار بسبب المودة {وَأَنَا أَعْلَمُ} أي والحال أنني أعلم منكم {بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} ومطلع رسولي على ما تسرون، في قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ} أي الاتخاذ. {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} فقد أخطأ الحق والصواب.^{٥٢}

قال الشافعي : رحمه الله: لم يكن مولى له بالإسلام ولا الموالاة واحتج في ذلك بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في زيد بن حارثة (قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٢﴾ الأحزاب:

ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ٣٧﴾ الأحزاب فنسب الموالى إلى نسيين احدهما إلى الآباء والآخر إلى الولاء وجعل الولاء بالنعمة.^{٥٣}

^{٥٢} تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي

^{٥٣} السنن الكبرى، للبيهقي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٣ هـ، ج ١٠، ص ٢٩٥.

هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والمعرفة.

الخاتمة:

في ثانيا سورة الأنفال أتت أحداث غزوة بدر وجاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان، كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله. وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال. أما النداء الأول فجاء بالتحذير من الفرار في المعركة وقد توعّد القرآن الكريم الفار من المعركة بأشدّ العذاب، وجاء النداء الثاني وهو الأمر بالسمع والطاعة كما صورت الآيات من لا يعي ويستجيب لدعوة الحق بالأنعام السارحة. وفي النداء الثالث جاء بيان ما يدعوهم إليه الرسول وما في هذه الدعوة فقد بين لهم أن ما يدعوهم إليه فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وجاء النداء الرابع متضمناً عدم إفشاء السر وما فيه فقد نبههم أن فيه خيانة لله ورسوله وخيانة للأمة، وفي النداء الخامس بيان ثمرة التقوى فقد لفت نظرهم إليها وذكرهم بأنها أساس الخير كله وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، وفي النداء الأخير بيان الولاية الكاملة بين المؤمنين فقد وضح لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء والصبر عند اللقاء واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقد ختمت السورة الكريمة به، وأنه مهما تناعت ديارهم، واختلفت أجناسهم، فهم أمة واحدة، وعليهم نصر الذين يستتصرونهم في الدين، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين.

النتائج:

١. من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في هذه السورة الكريمة، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين إتباعها في قتالهم

لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكسرة السلاح والرجال.

٢ . ففي هذا الإرشاد تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء، وهي خطة محمودة عند العرب لم يزد بها الإسلام إلا تقوية.

قال الحُصَيْن بن الحُمَام:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُتَقَدَّمَ^{٥٤}

٣ . أما النداءات التي ذكرت في هذه السورة الكريمة خاصة بأهل الإيمان وهي كلمة تشريف لهم كونهم يصفهم الله سبحانه وتعالى بهذا فهي شرف ما بعده، فعليهم واجبات هذا الالتزام.

أول: النداء التحذير من الفرار في المعركة عند ملاقات العدو، ثانياً: الأمر بالسمع والطاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله. ثالثاً: الأمر بالاستجابة لله والرسول،

رابعاً: إفشاء السر للأعداء فيه خيانة لله والرسول. خامساً: بيان ثمرات التقوي وهي أساس الخير كله، فقد فرض الله جميع الفرائض وهي أركان الإسلام الخمسة لتقواها.

فالنداء الأخير: وهي الأمر بالثبات عند ملاقات الأعداء وذكر الله كثيراً، لأنّ المؤمن عندما يذكر الله يثبتته الله في جميع الأحوال ويكون مستذكراً عظيمة الله في قلبه فلا يخاف أحداً، وكذلك ولاية المؤمن للمؤمن من خصوصيات هذا الدين فديننا دين الحق وهو الإيمان، والأخلاق، والكرم، والشجاعة، والثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء.

فهذا ما توصل إليه الباحث والله الموفق.

٥٤ خزائن الأدب، عبد القادر البغدادي، المطبعة السلفية بالقاهرة . مصر ١٣٤٧ هـ ج ١، ص ١٣٨ .

المصادر والمراجع:

١. الجامع لأحكام القرآن القرطبي، توزيع مكتبة الغزالي . مؤسسة مناهل العرفان.
٢. جامع البيان في تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، [٢٢٤ - ٣١٠ هـ] المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة . بيروت، ١٤٠٥ هـ، ص.
٣. - فتح القدير للشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان
٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق المحاربي تحقيق: عبد السلام عبدالشافى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
٥. التحرير والتنوير لابن عاشور ، دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان،
٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي،
٧. أضواء البيان: محمد الأمين الشنقيطي.
٨. في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج ٤، ص ١٢٩. دار الشروق، القاهرة . الطبعة ٢٥ . ١٤١٧ هـ.
٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة . بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ . ٢٠٠٠ م
١٠. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي، طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ، ج ١، ص ٤١٦.
١١. تفسير زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي . بيروت، ط ٣، ١٩٨٧ م.

١٢. تفسير البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، دار إحياء التراث العربي..بيروت،
١٣. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري، دار الفكر . بيروت . لبنان.
١٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي، دار الكتب العلمية . بيروت.
١٥. تفسير أبو القاسم القشيري.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي.
١٦. صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار الصابوني ٢
١٧. - سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث السجستاني، جمع جوامع الأسانيد ومكنز الصحاح والسنن والمسانيد -، جمعية المكنز الإسلامي، ١٤٢١هـ،
١٨. رياض الصالحين للنووي، حققه ماهر ياسين الفحل، باب في المحافظة على السمع والطاعة.
١٩. المستدرك للحاكم النيسابوري علي الصحيحين ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية . بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٢٠. السنن الكبرى، للبيهقي، دار المعرفة . بيروت، ١٤١٣هـ
٢١. المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى . ١٣٣١هـ
٢٢. صحيح مسلم بشرح النووي ،في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها، مؤسسة مناهل العرفان . بيروت.
٢٣. الاستذكار، ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠.

٢٤. شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار العلمية . بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ
٢٥. صحيح البخاري"محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله، مؤسسة مناهل العرفان . مكتبة الغزالي
٢٦. القاموس المحيط، للفيروز آبادي ج.
٢٧. جمهرة اللغة ، لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين . بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
٢٨. ديوان عنتر بن شداد، باب عفت الدير، وباق الأطلال، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي . بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.
٢٩. خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، المطبعة السلفية بالقاهرة . مصر .
٣٠. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي . القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م، ج ١/ ص ١٣٧،
٣١. شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨ م.
٣٢. الصحاح في اللغة، للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين . بيروت، ط ٢، ج ١، ص ٥٢.
٣٣. المحيط في اللغة، صاحب بن عباد، ج ١، ص ١٩٧.
٣٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب.
٣٥. التعريفات للجرجاني.
٣٦. طبقات الحنابلة